جنون الكرم

انه اذا كان الافراط في البخل معدوداً من جملة انواع الجنون لعدم ظهور وجه الحكمة فيه الى ذاك الحد كذلك الكرم الجم والاسراف المفرط في الجود يعد جنوناً بلا ريب لان متجاوز الحد والمقصر عنه سيان بالقياس اليه

ولقد روت احدى الصحف طرفاً من احوال بعض المجانين في الكرم فذكرت عن احدهم انه افرط في بذله على المساكين وبناء الملاجىء لهم حتى افتقر ولم يعد معه شيء يعيش به فاضطر ان يأوى الى الملجأ الذي بناه حيث قضى بقية ايامه محسناً اليه ولكنه رسم على حائط في ذاك الملجأ صورة رجل بيده فأس وكتب تحته بيتين من الشعر مفادهما ان كل غني يبذل كل امواله قبل ان يموت يكون مستحقاً لضربة من هذا الفأس تطير رأسه عن جسده فكأنه بذلك قد خالف قول كارنيجي المحسن الشهير وهو ملعون كل من يموت غنياً

وروت عن رجل آخر ان الهبات السرية كانت تتدفق منه على احدى الجمعيات الخيرية حتى حارت في امره ثم عرفته اخيراً فوجدته على فقر شديد اذ لم يكن معه الا عشرون جنيهاً فقط وتبين لها انه مجنون كرم ليس الا . الا ان من الناس من يعذرون على فرط سخائهم ولا يعدون في حد المجانين ولكن الظروف تعاكسهم احياناً حتى يسجل لهم الجنون ومن هؤلاء رجل كان مريضاً بداء القلب وكان غنياً فحدثته نفسه بانه لا يعيش

اكثر من سنتين وان موته العاجل محتم اذ لا دواء لدائه فاخذ يبذل مسرعاً حتى يموت فقيراً كما خلق ولكن المرض خانه فلم يمت في الحين الذي افترضه بل عاش سنة ثالثة على نهاية الفقر ومات على غاية الذل دون ان يرى ادنى اسعاف من الذين وصل اليهم بره بل ساعده قليلا الذين كانوا يعرفونه ولا يبلغهم احسانه

ولمجانين الكرم حكايات كثيرة مثل هذه ولكن الحكاية الاخيرة لا تدل على جنون محض بل هو جنون ممزوج بحكمة كجنون الذي ينتحر لداء لا يقبل الشفاء ولكن شدة البذل الى هذا الحد مذمومة على كل حال وانما نقول على كل حال ونريد بذلك احوال الناس الحاضرة لان امساك اكثرهم وبذل نفر قليلين منهم مما يجعل البذل جنوناً لانهم لو كانوا كلهم لا يهتمون بالغد ولا يدخرون الاموال بل يبذلونها كلها على درجة واحدة لعاشوا كلهم على يسار ولم يكن بينهم شقاء شديد

ولقد اكثر الناس من القول بوجوب الجري على هذه الطريقة وهي بذل كل ربح قصد ان لا يكون يسار مجموع وشقاء مجموع فقالوا انفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب وقالوا الكريم لا يضام ونحو ذلك من الحكم ولكنهم لم يجروا عليها جميعهم فكانت نتيجتها شؤماً على بعضهم والى شيء من هذه الحالة يشير البحتري بقوله في الفتح بن خاقان

ملأت يداه يدي وشرّد جوده ... بخلي فافقرني كما اغناني
ووثقت بالخلف الجميل معجلا ... منه فاعطيت الذي اعطاني

ثم كأنه نظر الى بطلان قولهم الكريم لا يضام وانفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب فقال

لم تلمني اني سمحت ولكن لمتَ اني احسنت بالله ظنـا

وحقاً لقد صدق وصدق ايضاً في قوله

والبذل يبذل من وجه الكريم وقد يضحي الندى وهو للحر الكريم ردى

من ذاك قيل لكعب يوم سؤدده رد كعب انك ورّادٌ فما وردا

الا ان شدة البذل تعد افضل من شدة البخل لان الباذل المجنون ينفع الالوف ولا يؤذي الا نفسه فقط كما انه قد يرد تلك الاذية عن نفسه بسروره من العطاء وورؤيته غيره مسروراً به مثنياً عليه او مقتدياً بعمله في حين البخيل يؤذي نفسه في حياته بما يصيبه من مضض التقتير وحرمان النفس من منيتها ويؤذيها بسب الناس وهجوهم علانية واغتياباً ثم يموت دون ان يشعر بشيء من السرور الذي اصاب وارثيه حين التمتع باموله وبذلك يموت مذموماً ملعوناً بكل شفة ولسان كما انه يموت مورثاً لاهله من سؤ الذكر ما لا يشفع به حسن المال الذي ترك على خلاف ورثاء الكريم الفقير فانهم يرثون الثناء على فقيدهم بما يكسبهم الثناء الذي يكسب المال احياناً كثيرة

وعلى الجملة فان الاليق بكل غني عاقل ان يكون اميل الى جانب الاسراف في الجود منه الى جانب الاسراف في البخل اعتباراً بما قدمنا من البراهين وانما نقول هذا لان الاعتدال صعب في هذا الشأن كما هو صعب في كل الشؤون وقد خلق الانسان متطرفاً في اكثر احواله

حديث الانيس

انه اذا كانت الاميرة اينا الانكليزية التي ستصير زوجة لملك اسبانيا بعد ايام ستنتقل من حال الى حال فتصبح كاثوليكية بعد ان كانت بروتستانتية فان هذا الانتقال لا يعد امراً غريباً في نظر العقلاء وان عده كذلك الجهلاء ولكن الانتقال الحقيقي الذي سيصيبها هو خروجها من انكلترا وعادات ملوكها وهي البساطة والحرية والتواضع الى بلاد اسبانيا ذات المجد الاثيل والعز الموروث القديم والتباهي الى آخر حدود الافتخار وابهة الملك وعظمة السلطة والتحكم في الرقاب فان هذه المملكة التي تعد الان من افقر ممالك اوروبا ويعد اهلها على شيء من الكسل بكثرة ولوعهم باللهو تعد ايضاً على جانب عظيم من ابهة العرب القديمة وبالتالي الفخر الشرقي الباطل فانهم قد حدثوا عن احوال الملوك في اسبانيا ان (الرسميات) يجب ان تتبعهم على الدوام اينما حلوا ورحلوا وناموا واستيقظوا ولبسوا وخلعوا واكلوا وشربوا وبالجملة كل احوال معايشهم من الدقيق الى الجليل ولذلك خبروا عن جلالة الملك الحالي الفونس انه منذ ولد للان وهو لا يستريح لحظة واحدة من التلقي بالرسميات والتوديع بالاكرام والاعظام الى آخر حدودهما حتى كأنه هابط من السماء وليس من ابناء حواء فانه منذ ولد وهو يعامل معاملة الملوك الكبار فلا يمازح ولا يضرب ولا يوبخ (الا من امه مثلا) ولا يحمل الا بالتجلة ولا يسار به الا في المواكب بين المشاة والفرسان دون ان يدري